الانتباه . وما يسميه جيمز أحيانا بقدرتنا الخالقة « Fiat » إن هو إلا مجرد تعبير عما تتصف به إرادتنا من مقدرة على الانتباه إلى موضوع عسير ، مع التمسك به بجعله حاضرًا أمام الذهن . ومثل هذا الانتباه الإرادى هو الذى يولد الحركة اللازمة بطريقة مباشرة ، فتدفع إلى تحقيق الفعل المراد تحقيقه . وهكذا نرى أن دفاع وليم جيمز عن الحرية وثيق الصلة بمذهبه التعددى ونزعته الأخلاقية التحسنية من جهة ، وبمذهبه السيكولوجى ونزعته الإرادية من جهة أخرى .

( Cf. J. Wahl : "Les philosophies pluralistes", pp. 148 - 150 )

**فلسفة الدين :**

لقد رأينا كيف جعل جيمز من الحرية نتيجة طبيعية للقول بأن هناك كثرة وجدة وصدفة ، إذ لكى يكون لنا تأثير على العالم فلا بد أن يكون هذا العالم مرنا قابلا للتغير ، حتى يتسنى لنا أن نحقق فيه ما شئنا من معتقدات حية . فالفلسفة العملية لا ترى فى العالم نظاما آليا نحن فيه بمثابة العجلة الصغيرة أو الترس الصغير ، بل هى ترى أن الكون الحقيقى الذى تكشف لنا عنه التجربة هو ذلك الذى يتجاوب مع حاجاتنا وميولنا ، والذى فيه نستطيع أن نعمل ونؤكد طابعنا . وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى المشكلة الدينية ، فإن المذهب العملى إنما يدرس الدين من وجهة نظر الحاجات الإنسانية نفسها . وتبعًا لذلك فإن جيمز لا يعنى نفسه بالبحث عن أدلة لإثبات وجود الله ، وإنما هو يمضى مباشرة إلى الوقائع ، فيجعل نقطة بدئه هى « التجارب الدينية » نفسها . ولا يتحدث جيمز عن « التجربة الدينية » على العموم ، بل هو يتحدث عن تجارب دينية عديدة ، لأنه يرى أن للتجربة الدينية من الصور بقدر ما هنالك من أفراد متدينين[١] . ومعنى هذا أننا هنا بصدد نزعة تجريبية فردية هى التى تسم بطابعها منهج جيمز فى دراسة الفلسفة الدينية . وليست التجارب الدينية فى نظر جيمز هى مجرد « وثائق »

---

(١) « The nature and quality of our religion depends on the type of person we are. » ( **«Varities of Religious Experience"**, p. 477. )

نقوم بجمعها ودراستها ، بل هى أقرب ما تكـــون إلى « كشوف » Révélations ندرس من خلالها كيف تتجلى الحقيقة الإلـٰهية لأفراد مختلفين(١) .

ولكن قبل أن ندرس هذه « الحقيقة الإلـٰهية » على نحو ما تصورها چيمز ( من خلال دراسته للتجارب الدينية المتعددة ) لا بد لنا من أن نقرر أن ما يكون صميم الدين ( فى نظر چيمز ) إنما هو الشعور الدينى أو العاطفة الدينية . فليست العبرة بالطقوس والفرائض ، بل العبرة بالروح والديانة الشخصية الباطنة . والواقع أن الدين أمر شخصى فى جوهره ، فليس المهم أن نعرف الأسس النظرية التى تقوم عليها عقائده ، بل المهم أن نقف على ثماره ونتائجه . وفضلا عن ذلك ، فإن الدين وثيق الصلة بالحياة ، لأن كلا منا يحيا وفقا لمزاجه الدينى . ولما كان چيمز يريد أن يحكم على الشجرة بالنظر إلى ثمارها ، فإنه لا يحكم على التجربة الدينية إلا بالنظر إلى نتائجها . وهكذا نراه يقرر أن الشعور الدينى هو عبـارة عن شعـور بالانسجـام الباطـن العميـق ؛ شعـور بالسلام والراحـة والاغتباط ، شعور بأن كل شىء يسير على ما يرام فى داخلنا وفى العالم الخارجى أيضًا . وإذا كان من أخص خصائص الشعور الدينى أنه يشعرنا بأن الحياة خلاقة مبدعة ، فذلك لأنه ينطوى على الإحساس بمشاركة قدرة أعظم من قدرتنا ، والرغبة فى التعاون مع تلك القدرة فى تحقيق أعمال المحبة والتوافق والسلام . فالتجربة الدينية ( مهما تعددت صورها ) لا بد أن تقودنا إلى الشعور بأننا

---

(٢) سنرى فيما يلى كيف أن وجود الله عند چيمز لا يقوم على أدلة عقلية أو معرفة موضوعية ، بل هو وليد اعتقاد دينى قائم على « التجربة الدينية » بكل ما فيها من شعور وعاطفة ووجدان . وفى هذا يقول چيمز نفسه : « إن العمليات التصورية تستطيع أن تقوم بتصنيف الوقائع أو تعريفها أو تأويلها ، ولكنها لا تستطيع إنتاج تلك الوقائع ، كما أنها لا تستطيع إعادة حدوثها فى صورتها الفردية الخاصة . ذلك لأن هناك شيئا زائدًا ، بل شيئا فرديًا ، لا يستطيع أن يمدنا به أى شىء آخر إلا الإحساس أو الشعور . » "There is always a **plus, a thisness.** which feeling alone can answer for.'

نشارك بطريقة لاشعورية فى موجود أعظم هو الله أو المبدأ الإلـهى[١] . وعلى الرغم مما يكتنف هذه التجربة الدينية من قلق وصراع وأزمات نفسية ، فإن من المؤكد أن شعور النفس بوجود قوة عليا تستطيع أن تجد لديها الغوث والعون من شأنه أن يأخذ بيدها دائمًا فى هذه الحياة . وليس هذا الشعور بمثابة وهم خادع لا أساس له ، بل إن التجربة لتدلنا على أن فى النفس من التيارات الروحية الخفية ما تعجز عن تفسيره النزعات الحسية السطحية . وإذا كان البعض قد توهم أن التجربة العلمية هى كل شىء ، فإن وليم جيمز يقرر أن التجربة لا تقل أهمية ونفعا وشرعية عن التجربة العلمية نفسها ، إن لم تكن أكثر منها مباشرة وواقعية وامتدادًا وعمقا . والواقع أن نقطة البدء فى الدين هى « المجسم » Concrete أى الظاهرة ( أو الواقعة ) Fact بمظهرها الخصب الملىء ، أعنى بما فى ذلك الفكر ، والعاطفة ، والإحساس الغامض بمشاركتنا فى حياة هذا الكون ؛ بينما نقطة البدء فى العلم هى « المجرد » L' abstrait ؛ أعنى مجرد عنصر مستخرج من الواقعة المعطاة ، ومنظور إليه بمفرده ( على حدة ) فالعلم هو مجرد جزء لا يمكن أن يحل محل الكل ، والإنسان إنما يستخدم العلم ، بينما هو يعيش على الدين . بيد أنه ليس هناك موضع فى نظر جيمز للتحدث عن مثل هذا التعارض الجوهرى بين العلم والدين ، لأنه إذا كان العلم ينزع فى صميمه إلى تفسير التجربة ، فإن الدين هو

---

(١) يقول جيمز فى كتابه المسمى : « أنحاء من التجربة الدينية » : « إن ما يظهرنا عليه الدين ... إنما هو فى نهاية الأمر مجرد واقعة مستخلصة من التجربة، إذ يقول الدين إن الإلـه the divine ماثل بالفعل فى تجربتنا ، وأن هناك علاقات متبادلة بيننا وبينه ... » .

( W. James : **"Varieties of Religious Experience"**, ch. «Philosophy». )

وفى موضع آخر نراه يقول : « إن بيننا وبين الله علاقات تخصنا كما تخصه هو . »

**"We and God have business with each other"**

فليس للحقائق الدينية سوى معنى حيوى يتمثل فيما تنطوى عليه تلك الحقائق من مضمون باطنى روحى حى ( viatl spiritual involvement )

( Ch. W. Lames : Ibid., pp. 516. f. )

الآخر ليس إلا تجربة ، أو هو واقعية حية نختبرها ونشعر بها . وقد قربت بين العلم والدين تلك الدراسات السيكولوجية الحديثة التى أظهرتنا على العلاقة المباشرة بين الذات الشاعرة والذات اللاشعورية ، فأصبح فى استطاعتنا أن نزيد من خصب حياتنا الشعورية بالكشف عن مضمون تلك المنطقة اللاشعورية التى تكمن فى أعمق أعماق ذواتنا ، والتى ترفع الناس أحيانا إلى درجة روحية سامية تمتنع على العقل والإرادة .

وليس فى استطاعتنا أن نعرض هنا بالتفصيل لجميع مظاهر الحياة الدينية التى اهتم جيمز بتحليلها وشرحها فى كتابه القيم المسمى بأشكال التجربة الدينية "Varieties of Religious Experience" ، ولكن حسبنا أن نقول إن جيمز قد اهتم على الخصوص بدراسة « الصلاة » Prayer و« التحول أو الانقلاب الدينى » Religious conversion ، و« التجربة الصوفية » Mystic experience أما الصلاة فهى الفعل الدينى الذى يقوم على الإيمان بأن من شأن ذلك الموجود الأعلى الذى يعلو على ذاتنا المتناهية وعالمنا المحدود أن يحقق فينا وفى العالم من الأحداث ما لا يمكن مطلقًا لهذا العالم وحده أن يحققه . وأما التحول الدينى فإنه يقترن دائما بالشعور بفعل فائق للطبيعة من شأنه على حين فجأة ( أو بالتدريج أحيانا ) أن يغير من حياتنا بطريقة عميقة وحاسمة . وأما فى الحالات الصوفية فإن الذات تشعر باتحادها بالله ، بضرب من التحول أو الإبدال Déplacement فى مركز طاقتها الشخصية نتيجة لذلك الاتحاد . وليست الحالات الصوفية بمثابة انحرافات فى صميم الشعور الدينى ، بل هى أعلى صورة من صور ذلك الشعور النفسى الذى يستولى علينا حينما نحس بأن وجودنا قد اتسع باستغراقه فى موجود أعظم منا ، وهذا الشعور نفسه هو صميم الدين باعتباره تجربة حية . وعلى كل حال ، فإن الرجل المتدين ( أيا ما كان إيمانه الدينى ) يشعر بأن علاقته بذلك الموجود الأعلى الذى يتعلق به هى مصدر قوته وطاقته ورجائه فى الحياة ، وهو لهذا يستمد من تلك العلاقة نفسها سعادة وسلامًا وغبطة روحية ما كان يمكن